المعتصم بالله المؤمن

بين يديه سلسلة

مجنون السّلاسل

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

...بين يديه سلسلة...

مجنون السّلاسل

تأليف:

المعتصم بالله المؤمن

لم أصدق ما رأته عيناي، حياتي يا حياتي!.. منصبي يا منصبي!.. ماذا حدث؟.. ما الّذي حطّم أسهم الشّركة بهذه الطّريقة المريعة؟.. ما هذا الذي يهدّد حياتي الاجتماعيّة والعائليّة؟.. ما هذا الّذي سيسحبني إلى جحيمٍ مهنيٍّ ويحطّم مستقبلي وسمعتي كمديرٍ عامٍ ناجحٍ إلى الأبد؟؟!

خرجت من المكتب وقد أظلمت الدّنيا في عينيّ واسودّ العالم من حولي.. وبتّ أشعر باليأس يدبّ معي مع كلّ خطوةٍ ويلطمني مع كلّ فكرة.. ركبت سيّارتي الفاخرة بعيونٍ ذاخرةٍ بعبرات التّعاسة والخوف والألم.. ومضت سيّارتي تمشي الهوينى بين زحام الشّارع العام، تستغلّ أنّ فكري شاردٌ في ذهولٍ بينما أنا متّكئٌ على نافذة السّيّارة، ولكنّي استيقظت فجأةً على صوتٍ زاحم أفكاري يمنةً ويسرةً حتّى وصل إلى عقلي قائلاً:

- يا عمّ.. أحسن إليّ اليوم، يُحسَن إليك في الغد!

فالتفتّ وجفلت مرتدّاً إلى داخل السّيّارة من رؤية ذلك المتسوّل بجوار أذني، وسرعان ما أغلقت زجاج النّافذة منزعجاً وعيناي تخطفان نظراتٍ إلى تلك السّلسة الّتي تربط

يديّ ذاك الشّاب المتسوّل، والّتي لا أظنّها تترك له إلّا ما يقرب من عشرة سم، كيف يعيش معها؟!.. ويا لها من رسالةٍ غريبةٍ إليّ لأشفق عليه.. فعلاً كم يدنّون أنفسهم ويعذّبون أرواحهم لأجل نقودٍ قليلة..

ولكن مهلاً، تذكّرت كم هم محتّالون ومكّارون؛ لقد اتّخذوا كرامتهم بضاعةً تجني عليهم أكثر ممّا يجنيه العمل الشّريف.. مجانين.. مختلّون عقليّاً!

ابتسمت من بين سحب الغمّ على وجهي؛ هازئاً بهم بهذا النّعت الّذي ألبستهم إيّاه، عندما اخترقت عيناي سواد زجاج سيّارتي المغشّى لأرى على أسماله جملةً مطرّزةً بلونٍ صارخ: " انتبه.. مختلّ عقليا"

ماذا؟؟.. ما إن ابتعد حتّى أنزلت الزجاج ثانيةً لأحدّق وأتحقّق ممّا ادّعته عيناي.. غير معقول!.. لتوّي كنت أقول أنّ "مختلّ عقليّا" هي نعتٌ ألبستهم إيّاه وإذا به يلبسه بالفعل، لم يحدث هذا في حياتي من قبل..

عبست غير مصدّق؛ هل هذا يعني.. هذا يعني أنّ حظّي قد تحوّل من مديرٍ ناجحٍ إلى نوعٍ آخر من النّجاح التّوقّعي!.. هززت رأسي لأنفض هذا الهراء عنّي؛ يبدو أنّي أنا من

سيختلّ عقليّاً في النّهاية.. أغلقت النّافذة وأغلقت الأمل معها وعدت لأغرق في عذابي...

ذاك اليوم كان البداية.. بداية التزحلق من قمّة المجد إلى وادي الفشل والإفلاس قرشاً بعد قرشٍ وإلى ظلام الوحدة، لم يستغرق الأمر طويلاً حتّى تمّ الاستغناء عن خدماتي، ولِتُوْسَمَ ال(سي في) خاصّتي بالفشل؛ المدير العام لشركة ل . م . د الشّهيرة، الّتي تناقلت الأفواه انحطاطها وتناقص نفوذها بشكلٍ خطير، يا له من مديحٍ مرير..

من سيقبل مديراً فاشلاً؟!.. وهل سيقبل مديرٌ مكرّمٌ مثلي أن يعمل.. أقلّ من مدير؟!.. والسّؤال الأهمّ: هل ستقبل زوجة المدير المنحدرة من عائلةٍ ثريّةٍ ومجيدة الأصول أن تحطّ من قدرها وتعيش حياة.. الأناس العاديّين؟؟!.. الجواب: هو شجارٌ على مرّ أشهرٍ حتّى انتهى بسحبها يَدَيّ البنتين ماضيةً إلى بيت أهلها المترف علّها تجد حظّاً يناسب حظّها، على حدّ تعبيرها!!

والنّتيجة الأخيرة -بعد مرور حَوْلٍ(سنةٍ كاملة) على ذاك اليوم المذكور- هي أنّني أصبحت أعزباً، فاشلاً، مديوناً ومعذّباً بذكريات الثّراء والنّجاح والشّرف.. والزّواج والأبوّة والكرم.. وحيداً بكلّ ما قد تعنيه الكلمة من معنى؛ بعد أن تخلّى عنّي أصدقائي خيلاءً وتخلّيت عن آخرين حرجاً، وانتهى بي الأمر

أمشي في السّوق أحدّق حسداً ببضاعة المنافس الّتي رفستني رامية إيّاي في بحرٍ من الظّلام..

"انتظر وسترى وتذوق أنّ الأيّام الجميلة لا تستمرّ !".. هذا ما كنت أتمتم به عندما سمعت صوت سلاسل ترسف من ورائي وأنا أحدّق بحُنقٍ بواجهة المتجر، حيث رأيت في انعكاس الزّجاج الأنيق شبحاً لشابٍّ يمشي بأربع خطوات سريعة ليقطع ما أقطعه بخطوة واحدة، تقيّد قدميه تلك السّلسلة القصيرة الّتي تكاد ترميه متعثّراً، لولا أنّه قد اعتاد قبضتها بشكلٍ يكذب على القلوب؛ لتنسى أنّه مخلوقٌ معذّب..

ولكن كيف قد اعتاد على هذا وأنا حرٌّ ولا أعتاد على ما هو أهون منه؟!.. هل يعتاد الإنسان على العذاب لدرجة أن ينسى أنّ اسمه عذاب؟!.. ولكن كيف ينسى والنّاس من حوله يقفزون بحرّيّةٍ؟!

ركضت دون شعورٍ لألحق بهذا المخلوق وأنا أساءل نفسي: ما الّذي أعاد الرّقّ إلى مجتمعنا حتّى يستبيح النّاس رؤية شخصٍ في حالةٍ كهذه ويمضوا في أشغالهم؟!.. ألم يُثِر هذا عطفاً في قلب ناظر؟؟

وأخيراً دخل في بابٍ، ودخلت وراءه لأدرك أنّه الممرّ الخلفيّ لمسجدٍ قديمٍ، ولم أدرك ذلك إلّا حينما لفحني عتاب المسجد الّذي ذكّرتني ملامحه الهندسيّة العربيّة بأنّي لا أعرف شكل المساجد إلّا في صورٍ قد تمرّ على الشّابكة بالصّدفة.. ولكن هيّا لأتناسى هذا وأتّبع الشّابّ بهدوءٍ، ووقف أخيراً في زاويةٍ معزولةٍ ومظلمةٍ ليصلّي.. كانت هذه المرّة الأولى الّتي أقف بجوار شخصٍ يؤدّي حركات الصّلاة أمامي ولذا شعرت بالارتباك، فركنت في الظّلام لأشاهد هذا العرض أمامي، وقد سمّيته عرضاً لأنّه والله عرض!

رجلٌ مقيّد اليدين والسّاقين يركع ويسجد وينهض بسرعةٍ واتّزانٍ وكأنّه يشعر أنّه شخصٌ حرٌّ وكالرّيشة.. فمع أنّني فقدت كثيراً من وزني بسبب الهمّ، ولكنّها بالتّأكيد رياضةٌ لا أقدر وأنا حرٌّ على مزاولتها، والسّبب هو ألم الرّكب الّذي أعاني منه كوني قد دفعت سلامة ركبي ثمناً لتلك الشّركة الّتي انهار اقتصادها أمام عينيّ؛ بالجلوس أغلب النّهار وراء ذاك المكتب الخشبيّ منشغلاً ومنكبّاً على أشياءٍ قد نثرتها الرّياح المتمرّدة رماداً يتطاير في عاصفةٍ من الظّلام...

ونهض الشّابّ من ظلام تلك الزّاوية متمتماً بدعاءٍ ليغادر بسرعةٍ قبل أن أستوقفه قائلاً:

- لحظة!.. أوّد أن اتبادل كلمةً معك!

وما إن سمع صوتي حتّى أجفل وهرب كما لو كان حصاناً يفرّ من وحشٍ كان يتربّص به في ظلام الغابة، وركضت وراءه، هذا إن كانت قدراتي المتواضعة تسمّى ركضاً، ولكنّها كانت على أيّة حالٍ كافيةً لإمساك شخصٍ في سلسلة، فقبضت على كتفيه وأدرته باتّجاهي، وما إن تمكّن نظري منه حتّى صرخ في وجهي كقردٍ مجنونٍ وصار يزعق ويعمل بوجهه حركاتٍ مريعةٍ ويبصق ويزبد ويهزّ كالمجانين فما كان منّي إلّا أن تركته مبهوتاً ومتجمّداً في مكاني أراقبه وهو يغادر ساحباً قدميه بشكلٍ سريعٍ وقد بدا في رجفته القلق..

غير معقول!.. لو أنّ أحداً حكاها لي لما صدّقته؛ لتوّه كان يصلّي باتّزانٍ ويقرأ بألفاظٍ صحيحةٍ وبهدوء واضحٍ -مقارنةً بهذا الجنون-، فماذا تسمّى حالةٌ كهذه إلّا تعقّلاً؟؟.. وماذا تسمى تلك الصّرخات والحركات بعدها إلّا جنوناً؟؟

باختصارٍ، لم يشبع فضولي بل ازداد قوّةً وإصراراً.. وحرّكت قدميّ أخيراً وأنا أتمتم:

- هذا ليس مجنوناً.. هذا ليس مجنوناً.. لماذا يتظاهر بذلك؟.. هذا هراء!

وخرجت أمسح الشّارع بعينيّ بحثاً عنه، ومضى بعض الوقت قبل أن توصلني الحارات السّكنيّة إلى الشّارع العام حيث

الازدحام والزّمير وأصوات محركات السّيّارات الغاضبة أو المستعجلة، وعند إشارة المرور كانوا هناك؛ المتسوّلون المحتالون وهم بأجسادهم المسودّة يتذلّلون، يهينون البشريّة بهذي التّصرفّات المخزية، فتقدّمت باحثاً عن مطلوبي غريب الأطوار وقد تذكّرت برؤية الشّارع أنّي سبق ورأيته قبل عامٍ عندما كنت أركب سيّارتي الفاخرة، وكنت من الّذين يلاحقهم وليس من الّذين يلاحقونه!

ومضيت واضعاً يديّ في جيوبي ألاحظ الأيدي والأقدام، حتّى وجدّته يهرول بما استطاع؛ ليتجاوز السّيّارات قبل أن تمضي وقد فُتحت إشارة المرور ليعود إلى الرّصيف فرحاً بغنيمته.. وتساءلت هازئاً:

- منذ متى كان مجنونٌ إلى حدّ القرود -الّذي حاول أن يخيّله إليّ- يستطيع أن يتفادى السّيّارات بهذا الاتزّان؟؟!

وهناك استطعت أن أقرأها؛ تلك العبارة نفسها: "انتبه، مختلّ عقليّا".. وهمست:

- لن أتركك حتّى أعرف إلى أيّ حدٍّ هذا الاختلال!

وأمضيت زماناً من وقتي الفارغ وأنا أراقبه حتّى حلّ ضوء الغروب، فمضى أولاً إلى المسجد ثمّ إلى وجهةٍ ما، ولحقته.. طيلة الطّريق وهو يتهادى من تعبه ولكن ما إن يمسّه أحدٌ

حتّى يبدأ موجةً من الجنون، ثمّ يهدئ عند أقرب فرصة.. كانت رحلةً طويلةٍ أرهقتني أنا فضلاً عنه.. ومع ذلك استمرّينا نمشي ونمشي، ونمشي أيضاً!.. نلفّ وندور حتّى شككت أنّه يحاول أن يضيّعني عنه، وعندما أذّن العشاء كنّا عند نفس ذلك المسجد فدخل وصلّى وأنا أكاد أجنّ والتّعب يقطر منّي.. وبدأت فعلاً أقتنع بأنّه مختلٌّ عقليّاً، يدور ويدور، ولكنّي كنت عنيداً بما فيه الكفاية لأتّربّص برأيي وأصرّ على انتزاع سرّه من بين أضلاعه!

وبالفعل بقيت ألاحقه عن بعدٍ وهو يدور لساعةٍ أخرى قبل أن ينعطف انعطافةً جديدةً أخيراً، ولكن.. بدأت دائرةٌ جديدة؛ ندور وندور.. ندور وندور.. ندور حتّى دار مخّي ولم أعد أدري؛ أهو يدور لأنّه مجنونٌ، أم هو يجنّ لأنّه يدور؟؟

وعندها اعتقدت فعلاً أنه يحاولي تضليلي فانسحبت قافلاً إلى بيتي وتلك الأحداث تدور في خلدي وأنا أحاول ان أنساها بصعوبةٍ حتّى غرقت في النّوم من شدّة التّعب وصورة وجهه بحركاته المجنونة مطبوعةٌ في أحلامي!

انتهت تلك اللّيلة ومضت اللّيالي، واستطعت أخيراً أن أدير أحوالي حتّى افتتحت بالدّيون وبالصّعوبةٍ متجراً لبيع الأجهزة الكهربائيّة، أعلم أنّني اخترت بضاعةً غالية الثّمن ولكنّي كنت أريد أن أصل إلى القمّة بأسرع طريقٍ ولو بأصعب وسيلةٍ

وبألف دين؛ فحسب خطّتي الإداريّة يجب أن أوفّي الدّيون خلال تسعة أشهر!!

وفعلاً يوماً بعد يومٍ، ابتنيت قرشاً على قرشِ كما يقولون، وورقةً على ورقةٍ، حتّى كدتّ أن أفي بتلك الدّيون لأنطلق بحريّةٍ كطيرٍ نجا من قبضة قطٍّ يعذّبه ويستعرض أمامه أنيابه الّني ينوي أن يمزّقه بها.. نعم سأستعيد قريباً في غضون - سنةٍ أو اثنتين- كرامتي وبسمتي الشّريفة بين الأغنياء!

ولم أستطع الصّبر فبدأت أراسل زوجتي وبنتيّ وأوحي إليهم أنّ الأمور على ما يرام، وأنّنا سنعود أسرةً متحابّةً فالمياه ستعود إلى مجاريها وإنّما هي زلّةٌ في حياتي المهنيّة، فلكلّ جوادٍ كبوةٌ، وسأعود كما كنت وأفضل.

كان صباحاً جميلاً، شمسه دافئةٌ ورائحته رائحة ربيعٍ وسيمٍ، مشيت طيّب النّفس موفور الأمل، ألقيت التّحيّة على جيراني في السّوق وتبادلت معهم الأحاديث ببسمةٍ وقد أبهج أرواحنا نسيم الرّبيع، وانطلقت لأفتح متجري والعاملين عندي ينتظرانني أمامه فألقيا عليّ التّحيّة بأدبٍ مستعدّان للعمل عندما فتحت المتجر وهبت على أنفي رطوبةٌ، وتناهى إلى أذنيّ صدى افتتاح الباب يرنّ في أنحاء المتجر ، والسّبب أنّ متجري الكبير فارغ!

نعم، فارغٌ تماماً، وكأنّه لم يكن ذاخراً بالبضاعة أمس !..لا أصدّق! وضربت رأسي بالجدار .لا بدّ أنّني أحلم !.لا بدّ أنّه كابوس!.. أمسكني العامل لديّ محاولاً تهدئتي بلا فائدة، ركضت إلى الشّارع وأنا أصرخ كالمجانين:

- أيّها السّارق.. أيّها الجبان.. تعال وواجهني.. لن تهرب.. أمسكوه يا ناس.. أمسكووووه!

وتحلّق حولي الجيران مستغربين وقد رأوني لتوّهم مبتهجاً؛ فما الّذي قلب الموازين وحطّم زجاج الصّفاء؟؟.. ولكنّي اخترقت جمعهم وركضت لا ألوي على شيءٍ؛ أجرّب أفضل جدارٍ لأصدّم رأسي به من بين جدران أبنية المدينة!

من ناحيةٍ أخرى، جرّبت أيضاً السّيّارات؛ أيّها أفضل لتصدمني!، فمن شارعٍ إلى شارعٍ وأنا أركض على أمل أن تذهب إحداهنّ بروحي، ولكن أحسب أنّكم خمّنتم أنّ أملي لم يتحقّق!؛ والسّبب أنّ أحدهم أنقذني، وقفت متحديّاً مغمض العينين عندما شعرت بيدين تسحبانني وترميانني أرضاً ومرّت السّيّارة مسرعةً ملقيةً بغبارها على أنفي، فصرت أسعل بسبب الغبار وبسبب دموعي الّتي دخلت مجرى التّنفّس.. سعال.. سعال.. سعال..

وحلّ الظّلام وأنا أتنقّل من مكانٍ لآخر، أحسب أنّي زرت المدينة كلّها، ووقفت عند أذان العشاء -وكنت قد تعبت- أراقب ذلك المجنون الآنف الذّكر وهو ينسلّ خلسةً ليصلّي في ذاك المسجد القديم البنيان.. وخرج يمشي بتثاقلٍ من سلاسله متّجهاً من نفس الطّريق وبنفس الدّوران، وأنا ألحقه؛ ربّما لأنّه كان يسيطر عليّ الجنون مثله، فربّما إذا جعلت الحظّ يبتسم لي في اكتشاف حقيقة هذا، فسيبتسم لي في ذاك !

واستمرّ الطّريق طويلاً.. وعند منتصف اللّيل وفي جنح الظّلام انعطف انعطافةً جديدةً، فتنفّس فضولي الصّعداء عندما بدأ الجزء الغريب بوصولنا إلى حيٍّ فاخرٍ من أحياء المدينة ولكن، عدنا للدوران!.. يا إلهي، ألا نهاية لهذا؟.. هل هذا المجنون يرسم الدّوائر اللّا نهائيّة بقدميه بدلاً من قلمه؟!.. ولكن فجأةً وبينما أنا أفكّر بضرب رأسي بأحد أعمدة الإنارة، توقّفت عن هذا بعد أن لم أعد أسمع صوت سلاسله، وإذا به قد اختفى!

تقدّمت بهدوءٍ متلفّتاً ولكن لا أثر له!.. لتوّه كان أمامي!.. هل بدأت آثار الاختلال العقليّ تظهر عليّ؟ !..لا أصدّق؛ لقد أضعت اللّحظة المهمّة الّتي مضى عليّ أعذّب ساقيّ ساعتين لأجلها.. الآن يحقّ لي أن أُجَنّ!.. وبينما أنا أدور ماسحاً المكان بعينيّ عسى أن أجد له أثراً، التقطت عيناي شيئاً أثارني من أعماقي، جعلني مجنوناً بامتياز !

نعم.. لقد قرأت اسم صاحب المنزل الفاخر الّذي كنت واقفاً بجواره، إنّه هو، إنّه بعينه: "ماهر كمال الأهيب"، إنّه صاحب شركة عبد العزيز المنافسة الّتي حطّمت حياتي ورمتني إلى براثن الضّياع !

كدت أفقد عقلي؛ فأقتحم عليه من النّافذة لأشدّه من خناقه وأشفي غليلي بلطمه ولكمه.. نعم إنّه خلف هذا الجدار؛ معذّبي وراء هذا الجدار؛ محطّم حياتي وراء هذا الجدار!

ماذا أفعل؟.. ماذا أفعل؟.. ما الّذي جاء بي إليه؟.. وسكتّ مصدوماً عندما أجبت على هذا السّؤال.. نعم، فالجواب هو أن ذلك المجنون قد اختفى عند هذا البيت بالذّات !.. لم؟؟؟.. لماذا عنده بالذّات؟.. هل تقصّد ذلك؟.. هل يريد الانتقام منّي؟

أم أنّ للأمر جواباً مختلفاً بكلّ المعايير؟.. ترى هل سرّ ثراء منافسي المفاجئ يقع خلف تسوّل هذا الرّجل الّذي يتظاهر بالفقر، وهو يجمع ثروةً خلف ظهره؟، أم أنّه هو نفسه 'ماهر' وهو يجمع ثروته بالتّسوّل كمّا يشاع عن هؤلاء؟

ولكنّ سكون اللّيل سكت عن إجابتي، والجدار وقف أمام فضولي صنديداً يصدّ حواسي عن مرادها، وطالت ساعات اللّيل الباقية وأنا أتحرّق بانتظار الجواب، ألفّ وأدور في الحيّ

أستحثّ الشّمس لتأتي بضوءها، وأبحث في الشّابكة عن صور عائلة أهيب وكلّ ما أستطيع أن أجمع من معلوماتٍ عنهم..

وتنفّس الصّباح أخيراً وولد يومٌ جديدٌ وانبعث النّاس من كلّ اتجاه، كلٌّ يحمل آماله على كتفيه، وأنا خفيف الكتفين، لا أمل لي ولا رغبة. وأيضاً خرج من بين من خرج قبل أن يضيء المكان، مثقل الحركة المجنون من.. من ذاك البيت المشؤووم!.. فتقدّمت نحوه وعيناي تقدحان شرراً وقلبي يخفق غيظاً بينما هو يتمطّى ويتثاءب في طريقه إلى عمله المزعوم.. وتملّيت في وجهه لأجده شابّاً في العشرينيّات أو أصغر، أسمر الوجه وشفتاه ناعمتان وسمراوتان بشكلٍ ملفتٍ للنظر، أمّا عيناه السّوداوان ففيهما بريق الشّباب -ولم أشعر أنّ فيهما جنون- وشعره أسودٌ سبط، باختصار، يبدو شابّاً جذّاباً.. ولكنّه بالتّأكيد لا يشبه ماهر فهو نحيلٌ جدّاً بينما ماهر عملاق عضلات، ولذا فهو مستحيل أن تتطابق الشّخصيّتان -اللّتان تبدوان واقعيتين- ولو بعد المكياج أو التنكّر..

- صباح الخير يا ممثل هوليوود المستقبلي.. لو تتقدّم كممثلٍ لأدوار المجانين لأصبحت من النّجوم أو الأغنياء!

التفت إليّ من بين تثاؤبه بنظرةٍ حادّةٍ -أو حزينةٍ لست أدري- وهمس:

- ماذا فعلت لك حتّى تشتمني؟؟

وبعدها أخذ يصرخ ويزعق ويركض كدجاجةٍ مفزعةٍ حتّى اختفى عن ناظري، هززت كتفيّ وقد عجزت عن فهم مقصده، وجلست متربّصاً بانتظار من سيخرج من باب البيت، وانقضت أكثر من ساعتين قبل أن تحضر سيّارةٌ سوداء فاخرةٍ وتجثم بانتظار السّيّد الّذي احتاج قرابة ساعةٍ حتّى أطلّ من الباب الكبير للبيت بخطاه المغرورة وحلّته الفاخرة ولم أشكّ مطلقاً أنّه ماهر الّذي رأيته في الصّور.. هذا خصمي الّذي لو قبل ساعاتٍ -عندما كان الجنون يمسكني بمخالبه- لكنت قبضت عليه بمخالبي لأمزّقه كلّ ممزّق.. ولكن الآن، عليّ الالتزام بقانون الحياة وتركه يأخذ يومه السّعيد فيها..

وأخيراً وبعد ليلةٍ طويلةٍ، أخذت أمشي في طريقي إلى بيتي، بعد أن خضعت للواقع وأذعنت لحقيقة أنّ عليّ أن أبدأ من جديد في التّخطيط والتّفكير لمشروعٍ أفضل، ومن يدري؟ ربّما أسرع!

ونمت محزوناً وبعمقٍ دونما رغبةٍ في الاستيقاظ، حتّى أنّ رنين هاتفي هو ما أيقظني في اليوم التّالي، فأجبت على اتّصال سعد العامل في متجري بحنقٍ بينما حيّاني هو بنبرةٍ متفجّرةٍ:

- صباح الخير والنّور يا سيّدي.. أنتظر منك إكراميّة!

- إكراميّة؟!.. علامَ؟؟

- إكراميّة البشارة.. إن وعدتني بالإكراميّة بشّرتك !

- بشارة؟؟.. بماذا يا فتى؟.. إن كانت تستحقّ فلك ما أردت.

- البضاعة يا سيّدي.. جئت في الصّباح لأجدها في المتجر !

- ماذا؟؟.. البضاعة.. إنّك تكذب عليّ !

لا والله!.. تعال وانظر بنفسك وأحضر معك الإكراميّة أيضاً !

فقفزت منطلقاً، لا أدري كيف لبست، ووقفت في متجري مشدوهاً.. لقد عادوا .لا يصدّق.. لقد عادوا.. ولكنّهم مربوطين كما لو أنّهم كانوا حمولةٍ أنزلت هنا.. لم أجد لما حصل تفسيراً ولكنّ عقلي كاد يطير من الفرح، وتهافت الجيران ليهنّؤوني، ترى هل اللّص هو أحدهم، أو أحد عاملَيّ وقد شعر بالذّنب بعدما رأى ما حلّ بي البارحة؟؟

وعلى الفور أوعزت إليهما بفكّ البضاعة وإعادة تصفيفها في أماكنها، وأنا أتّصل بشركةٍ لتركيب أجهزة الأمان ضدّ اللّصوص، وهنا نبّهني العامل إلى شيءٍ غريبٍ لاحظه على بعض العلب، دماء.. نعم، رشقات دماءٍ على العلب.. يا للغرابة!

هل تشاجر اللّصوص بخصوص إعادة البضاعة، أم أنّ أحداً تصارع مع اللّص حتّى انتصر عليه وانتزع منه مسروقاته عنوةً؟؟.. فكّرت في الأمر، وخشيت إن أنا أوصلت عيّنة الدّم إلى الشّرطة أن يكون هذا دم الشّخص الّذي ساعدني -في الاحتمال الثّاني- فأوقعه بشرٍّ بدلاً من مكافأته، ولذلك أجبرت نفسي على السّكوت على مضض..

ولكنّي في المساء جلست مع سعد وصاحبه لاستعلم منهما ما حصل في غيابي خلال اليومين، فأكّد الاثنان أنّ لا شيء يثير الرّيبة عدا أنّ سعد قال أخيراً:

- الآن تذكّرت شيئاً غريباً، لا أدري إن كان له علاقةٌ بالأمر؛ جاء البارحة صباحاً رجلٌ أكيد رأيتَه عند الإشارة، ذلك المجنون غريب الأطوار، الّذي يقيّد نفسه بسلاسل..

وهنا قاطعته صائحاً:

- جاء إلى هنا؟؟.. ماذا قال؟.. ماذا فعل؟.. احكِ لي كلّ شيءٍ بالتّفصيل!

- اقترب من المتجر وهو يصيح بطريقةٍ غريبةٍ ثمّ رمق المكان ورمقني قائلاً:" صاحب هذا المتجر هو عادل ذو الشّعر البنّيّ والنّظارة الذّهبيّة صحيح؟".. فأجبته متردّداً: "وماذا تريد منه؟"

فقال: "ربّما أصير مختارا" وزعق وهزّ كالقرود ثمّ انطلق يعرج وهو يمسح المكان بنظراته..

- هذا كلّ شيء؟.. هل شعرت عينيه وهو يسأل عاقلةً أم مجنونة؟

- أعتقد.. أنّي أحسست أنّ وراء سؤاله عزماً.. لكنّه مجرّد شعور .لا أستطيع أن أؤكّده لك.

في تلك اللّحظة، شعرت أنّي وصلت إلى شيءٍ، فانطلقت مسرعاً قبل أذان العشاء لأختبئ في تلك الزاوية المظلمة خلف خزانة الدّروج من ذاك المسجد منتظراً إيّاه، وفعلاً لم يخيّب عادته، فجاء وأخذ بالصّلاة، الرّكعة تلو الأخرى، وسلاسله ترنّ مع حركاته..

وما إن انتهى حتّى انقضضت عليه قابضاً عليه بكلّ قواي وهو يصرخ ويزعق مثل المرّة السّابقة، ولكنّي ألصقته بالحائط وأغلقت فمه قائلاً:

- توقّف عن هذا التّهريج.. لن تخدعني؛ فأنا أعلم أنّك عاقل.. ولقد جئت لأعرف لماذا جئت إلى متجري.

فرفع يدي عن فمه وقال: - وأنا أريد أن أعرف لماذا تلاحقني حتّى بيتي؟

- أنا من سأل أولاً ولذا أجب عن سؤالي حتّى أجيب بدوري.

- لست مضطرّاً!

- بلى، لن أفلتك حتّى تجيبني، وأرني كيف ستهرب مع هذه السّلاسل!

- هكذا!

وفي لحظةٍ أخفض جسده قليلاً وانطلق لينطح ذقني بمقدّمة جمجمته، ولأنّ الألم كان شديداً ومفاجئاً؛ لم أستطع تثبيته قبل أن يوجه إليّ لكمةً إلى بطني وينطلق هارباً برشاقةٍ إلى الباب، ولكنّه توقّف لوهلةٍ قائلاً:

- إيّاك وأن تلاحقني أو تتربّص بي ثانيةً وإلّا حصل ما لا يرضيك، ولا تأخذ الأمور بمظاهرها، جرّب وسترى!

وغادر -أسمع صوت سلاسله- تاركاً إيّاي أعالج بطني وفكّي الّذي انتفخ، وأفكّر بما عليّ أن أفعل، وما إن أشار عليّ عقلي بالمحامي حتّى قفزت من فوري مسرعاً ومجاهداً ألمي إلى محاميّ المفضّل، وهو محامٍ بارعٌ أنجح لي عدّة قضايا سابقة، وعندما دخلت إليه وجدتّه ينوي إغلاق مكتبه قافلاً إلى بيته، ولكنّي استوقفته ومدّدت له دوامه هذا اليوم!

جلس المحامي يستمع إلى قصّتي بهدوءٍ قبل أن يعلّق:

- نعم، هذا الفتى أثار أحاديث النّاس لفترةٍ طويلةٍ بمظهره الغريب، وحاولت الشّرطة أن تتّحرى باحثةً عن من يقيّده

هكذا، ولكن انتشر في الصّحف في النّهاية أنّهم وجدوا معه مفتاحه، وبالتّالي كان هذا هو الدّليل على ادّعائه أنّه هو من يقيّد نفسه بنفسه!

وسكت قبل أن يردف محاولاً أن يقنع نفسه: -وهذه على غرابتها حريّةٌ شخصيّةٌ!

فأجبته محتجّاً:- مستحيل!.. يوجد قصّةٌ غريبةٌ هنا!.. ٠فأنا بتّ واثقاً أنّه إنسانٌ عاقلٌ بلا أدنى شكٍّ عندي، بل أظنّه حتّى شابّاً ذكيّاً.. ألم يعرفوا ما اسم عائلته؟

- لا، فلم يجدوا معه دليلاً على شخصيّته ولا هو اعترف بشيءٍ وقد عالج التّحقيق بالزّعيق والهزّ، وحينها حوّلوه إلى مستشفى المجانين، ولكنّه أُطْلِق بتقرير: سليم مئة بالمئة!

- وعاد لتصرّفاته المجنونة بعدها، لماذا يفعل ذلك؟ إنّ أمره غريب وأنا مستعدٌّ لأفعل أيّ شيءٍ لأكشف حقيقته!

- يبدو أنّك أخذت الأمر شخصيّاً جدّاً!

- نعم، لأنّه كذلك!

- يمسّ شخصك؟.. كيف؟

فأجبت محرجاً: - بطريقةٍ ما.. والآن ما دمت ستعمل على هذه القضيّة لأجلي فما هي قراءتك في قصّتي حسب خبرتك؟

فتنهّد لوهلةٍ قبل أن يجيب: - حسناً.. أثار انتباهي ذكرك أنّه ملتزمٌ بأداء الصّلوات، وهذا يدلّ فعلاً على إرادةٍ ودقّةٍ من ناحيةٍ، ومن أخرى -إذا أخذناه على حسب علم النّفس- أحسبه يعني أنّه في مأزق.

- مأزق؟.. وهل لك علمٌ في علم النّفس؟

- أجل.. أو أنّه يعاني من شيءٍ شديدٍ بالفعل، لأنّ الإنسان - بشكلٍ لا ينكر- يلجأ إلى الله حينما يشعر بالعجز والضّعف واليأس من النّاس وهذا ما يفعله البرّ والفاجر.. وأظنّ أنّ هذا ربّما يكون دليلاً على عجزه في أمرٍ ما في حياته.

- نعم، فمع أنّ هذا لم أجده في نفسي، إلّا أنّي معك في هذا بالنّسبة لشخصٍ آخر.. وماذا عن كونه يبيت في بيتٍ فاخر؟

فضحك المحامي قائلاً:- لسنا ندري بعد، ربّما يكون مجرّد خادمٍ أوصديقٍ أو ألف تخمين. ولكنّك متحمّسٌ جدّاً !، لا تنسَ أنّ هذه مجرّد تخمينات وقد لا يكون لها أصلٌ من الصّحّة!

- وقد تقرّبنا من الحقيقة أيضاً.. أنا أعلم ما ينبغي أن نفعل؛ سنلتقط له صورةٌ، وتبحث أنت عن هويّة هذا الشّابّ في عائلة أهيب.

- سأنفّذ طلبك.

- شيءٌ آخر، لديّ عيّنة دمٍ وجدناها على بضاعتي الّتي كانت مسروقة، هل تستطيع أن تعيّن صاحبها بطرائقك بعيداً عن تقارير الشّرطة؟

- سأبذل ما في وسعي.

وانطلقت بعدها إلى بيتي وقد شعرت أنّني قد أدّيت ما عليّ في سبيل حلّ هذا اللّغز الغريب. ولكنّ المفاجأة كانت في ظهور لغزٍ جديد، لماذا لم يعد النّاس يشترون من بضاعتي؟.. صارت تمرّ الأيّام ولا يقترب من متجري أحد !

لقد اضطررت إلى التّخلّي عن عمّالي ولا زال الأمر إلى أسوأ، حدث المستحيل؛ وهو عودة البضاعة المسروقة، ومع ذلك لم أستفد منها شيئاً، وكأنّ الخسارة والفشل هما قدري الّذي لا فرار منه، وفي أحد الأيّام أغلقت المتجر عاجزاً ومضيت أمشي متنهّداً عندما مررت بجماعةٍ من النّاس وسمعت أحدهم يقول:

- نصيحة: اشترِ الأدوات الكهربائيّة من متجر فلان ومتجر فلان، إنّهما الأفضل وغيرهما غشّاش!

فصعقت لأنتفض مدركاً سبب كساد بضاعتي، لكن لماذا؟.. لماذا يعاديني هذا الإنسان؟ وأخذت أصرخ: - كذب!.. لقد اشتريتُ من متجر عادل كثيراً، وما وجدتُ ما تقوله أبداً ً !

ابتسم الرّجل المفتري بمكرٍ وغمز الزّبون قائلاً:

- هذا صاحب متجر عادل للكهربائيّات، وكما سمعت قد بدأ بالكذب عليك منذ الآن !

بهتُّ عندما أدركت أنّ كذبتي لم تكن بمحلّها أبداً، ولكنّي انقضضت على المفتري آخذاً بخناقه ودخلنا في صراعٍ وصار النّاس يحاولون فكّنا وعند سماع صوت الشّرطة هربت وأنا أكاد أنفجر من الغضب.. لماذا؟.. لماذا؟.. لماذا يريدون أن يخربوا حياتي؟.. لماذا أنا من بين كلّ التّجار؟!.، لماذاااا؟

كنت قد وصلت إلى بيتي منهكاً، وفتحت الباب بقوّةٍ وغضبٍ، فسقطت ورقةٌ من الباب إلى يدي، مكتوبٌ عليها: - قلت لك جرّب وسترى!

وهنا جنّ جنوني وأنا أتذكّر صاحب هاتين الكلمتين وأتمتم مفجوعاً وأنا أضغط رأسي:

- إذاً هذا هو السّبب؟!.. لقد علم بأمر المحامي.. وهو ليس جاهلاً؛ إنّه يحسن الكتابة!

ووجه المصادفة أنّي ما إن دخلت بيتي وأغلقت الباب حتّى اتّصل بي المحامي قائلاً:

- بعد كلّ هذا الجهد والوقت كانت النّتيجة مخيّبةً للآمال، فلا يوجد تطابق مع صاحب هذه العيّنة من الدّمّ.. لن نصل إلى شيءٍ دون مشبوهين..

جلست وقد دفنت رأسي بين يديّ من شدّة عجزي ويأسي.. هذا ليس أوّل زبونِ يقول له ذاك المفتري ما قال، لقد تحطّمت مهنتي في هذا السّوق.. وداعاً يا حلمي، وداعاً يا عائلتي، لقد قذفتني أمواج الأقدار بعيداً جدّاً عنكم، إنّي لا أفهم: لماذا يحكم المال علاقاتنا بالآخرين؟؟!

وفي اليوم التّالي، ذهبت إلى تلك الزّاوية المعتادة لأنتظره عند صلاة الظّهر، وحين هممت أن أجلس خلف الخزانة، قفز عليّ من جنح الظّلام، فسقطت وقد كاد قلبي يسقط من الفزع، بينما صار هو يضحك، فاستجمعت أنفاسي قائلاً:

- أنت تذهلني.. أتراقبني دائماً حتّى تعرف تحرّكاتي ؟؟

-لا أحتاج إلى المراقبة لأعرف أنّك ستأتي إلى هنا بعد البارحة.. آسفٌ لأنّي أوهمك أنّي أبله لدرجة أنّك قد صدّقت كما يبدو!

وفي تلك اللّحظة، لاحظت أنّه بلا سلاسل هذه المرّة، وبدا الاستغراب على وجهي جليّاً فقال:

- كانت سوف تفسد المفاجأة، صحيح؟

- إذاً أنت بالفعل تقيّد نفسك بنفسك؟!

- ما رأيك؟!

- لكن!.. لماذا؟!. من يحبّ أن يعذّب نفسه؟!

- أنا !!

وتربّع مردفاً: ولكن دعك منّي، لماذا جئت؟

فصحّحت جلستي قبل أن أقول: - إنّك تعرف.. أليس ظلماً أنّك حطّمت تجارتي أنت وصديقك المفتري؟.. كان هناك ألف طريقةٍ أقلّ أذىً لتنتقم بها منّي!

- لا، فقد قابلت الأذى بمثله، ما تريد أن تفعله بي بتدخّلك في أموري، يوازي هذا الّذي فعلته بك الآن.

فسكتّ مصدوماً ثمّ قلت:

لا أصدّق أنّك تعتبر التّسوّل مهنةً إلى هذا الحدّ !

- صدّقت أم لا.. هذه حريّتي الشّخصيّة.. فدعني وشأني !

لمحت في عينيه حزناً وهو يقولها فلم أقتنع بأنّها الحقيقة الصّرفة ولكنّي قلت:

- سأتركك على شرطين، الأوّل أن تقول لصديقك أن يتوقّف عن معاداتي..

فابتسم موافقاً بينما أردفت: - والثّاني أن تتوقّف عن الصّلاة.

فانتفض قائلاً: - وتسمّي هذا توقّفاً عن التّدخّل في أموري؟!.. ما شأنك بصلاتي؟!.. إن كنتَ كافراً فتريد أن تسحبني معك؟؟

فأجبته بكبرياء: - على العكس، صحيحٌ أنّي لا أصلّي، ولكنّي أجلّ الصّلاة عن أن يزاولها شخصٌ مثلك !

فابتلع ريقه بحنقٍ وقال هازئاً: - ولماذا شخصٌ رائعٌ مثلك محرومٌ منها تماماً؟؟!

- يوماً ما سأصلّي، وسيكون هذا أفضل من شخصٍ كذّابٍ محتالٍ، لا يأكل إلّا حراماً.. تستجرّ شفقة النّاس وأنت ثريّ.. يا لك من لص!

فاحمرّ وجهه وضرب الأرض بقبضته وهو يقول: - أولاً: الجملة الّتي اخترتُها (للتّسوّل) ليس فيها كذب؛ فالله يحسن إلى كلّ

شخصٍ في كلّ غد، وثانياً الله يعلم ظروفي، كما أنّي لا آكل شيئاً من هذا الّذي يعطوني...

ثمّ صمت لوهلةٍ مصدوماً قبل أن يقول مبتسماً بغضب:

- حسناً.. لن تستخرج كلمةً أخرى منّي أيّها المكّار.. اغرب عن وجهي.. تخلّ عن المحامي إذا أردتّ من أصدقائي أن يسكتوا، واعلم أنّك إذا تدخّلت في أموري ثانيةً فسترى.. سترى!.. وبالمناسبة الّذي يجلّ الصّلاة لا يهملها أيّها الكذّاب.

خرجت وأنا أبتسم لكوني قد نجحت في جعله يعترف بأنّ هناك ظروفاً تقهره؛ على عكس ما كان يحاول إيهامي أنّ التّسوّل هو أقصى ما يفكّر به!.. ولكّنّي أيضاً كنت محرجاً من حجّتي الّتي وقفت ضدّي وجعلتني أبدو كذّاباً..

ولم أجد من أن أتخلّى عن المحامي بالفعل، وعدتّ إلى متجري بعد أن استبدلت بضاعتي ببضاعةٍ من الثّياب لأتحاشى هذا الّذي علق في أذهان النّاس، وعدتّ أخيراً إلى التّجارة دون مفترين مفسدين مزعجين.. والمدهش أنّه على عكس الأدوات الكهربائيّة فقد طارت بضاعتي الجديدة طيراناً، طار معه عقلي ولا زلت لست أدري فيما إذا كان أصدقاء المجنون قد قاموا بإذاعة شائعاتٍ جيّدةٍ عن بضاعتي ومتجري

حتّى أقبل الزّبائن عليّ هكذا؟!.. ولكن كان هذا آخر ما كان في هذا صدد هذا الرّجل إلى أن مرّت خمسة سنين..

.....

في الخمس سنين، كانت أمنيّاتي قد تحقّقت أكثر ممّا توقّعت وعاد الحظّ ليحالفني، فجرت تجارتي وفتحت عدّة أفرعٍ لمتجري، وعندما تأكّدت زوجتي أنّ مستقبل تجارتي يبدو واعداً، وافقت على العودة إليّ مع البنتين فعدنا عائلةً بعد طول فراقٍ، ولحسن حظّي أنّها لم تجد حظّاً أفضل!

نعم، لقد استقرّت حياتي، وبعد أن اطمأننت على تجارتي أخيراً، سمحت لنفسي أن أشتري سيّارةً فارهةً، ولا أشتري إلّا فارهة، وركبت أتجوّل في المدينة مفتخراً ومرحّباً بعودتي إلى مكاني الأوّل، وكما قد تتوقّع فقد مررت بذلك الشّارع العام، ووقفت في الزّحام عند إشارة المرور، ورأيته للسّنة السّادسة -منذ رأيته أوّلاً- وهو يذرع هذا الشّارع ذهاباً وإيّاباً حتّى لأظنّه قد أذاب من رجليه ملليمترات!

وأخذت أتأمّله كم تغيّر وقد نالت الشمس منه أكثر؛ فصار شديد الاسمرار والبؤس ظاهرٌ على وجهه، ويكفي أنّه قد تخلّى عن سلسلة رجليه دليلاً على أنّه قد أرهق كما بدا

لي، ومن سيّارةٍ إلى أخرى وصل إليّ بجملته القديمة الّتي أظنّه يحسن قولها أسرع من اسمه:

-يا عمّ.. أحسن إليّ اليوم، يُحسَن إليك في الغد !

ومدّ يديه وأنا أنظر إلى عينيه مبتسماً دون حراك.. وحين تذكّرني، أنزل يديه قائلاً:

- مرحباً.. هل أستطيع أن أتكلّم معك قليلاً؟

فأجبته مازحاً وخاصّةً أنّي في مزاجٍ جيّد:

- ما رأيك أن أصرخ وأزعق وأهرب كما فعلت سابقاً عندما طلبت إليك نفس الطّلب؟

ولكنّ الشّقاء جعل من بسمته باهتةً في حرّ ذاك الصّيف، وعندما شعرت أنّ في الأمر جِدّاً فتحت له الباب ليركب فقال بصوتٍ خفيض:

لا .لا أستطيع.. ماذا سيقول عنّي النّاس إذا ما رأوني أركب في سيّارةٍ فارهة.. لن أنزل عن الألسن.

- حسناً، سأركنها وآتي إلى ذاك المسجد، ألا زلت تصلّي فيه؟

- نعم.. ولكن هل من المؤكّد أنّك ستأتي؟.. أعني لا أستطيع أن أضيع الوقت اليوم..

- أجل مؤكّد.. ما إن يخفّ الزّحام حتّى أركنها وآتي.

وبالفعل وصلت إلى الزّاوية خلال ربع ساعةٍ، فوجدتّه هناك يغلي وقد ألقى بالسّلسة عند قدميه، وعندما رآني قال:

- أنا بحاجةٍ ماسّةٍ إلى خمسة آلاف ورقة، أرجوك فرّج كربتي لله؛ كمّا فرّج كربتك ..

وقفت بصمتٍ قبل أن أقول: - هذا مبلغٌ كبيرٌ وأنا أعلم أنّك كذّابٌ كبير، ومهنتك من سنين هي خداع النّاس، فتتوقّع منّي أن أصدّقك؟؟!

انكسرت عيناه قبل أن يتنهّد ويقول محدّقاً بالأرض:

- أتذكّر يوم سُرِقَت بضاعتك؟

- الأدوات الكهربائيّة؟.. طبعاً وهل يعقل أن أنسى؟ !.لا زلت أريد أن أكافئ من أعادها إليّ

- ولماذا تعتقد أنّ هناك من ساعدك؟

- لأنّي وجدتّ رشقات دمٍ على العلب، فظننت أنّ شجاراً قد نشب لأجلها..

- هذا صحيح.. فقد وجدت من ساعدك بالفعل.. وهو بأمسّ الحاجة إلى مساعدتك.. أساساً لم أكن لأطلب منك لولا أنّني مضطرّ، فأنت الشّخص الثّريّ الوحيد الّذي يعرف بأمري..

- أنت إذاً من ساعدني.. كيف؟

- ليس لديّ وقتٌ لأشرح لك..

- بل اشرح لي الآن، وإلّا ما الدّليل أنّك تقول الحقيقة؟

أطلّ من الباب لينظر إلى الشّمس ثمّ عاد:

- لديّ أقلّ من ساعة.. أإذا شرحت لك فالنّقود معك؛ لتعطيني إيّاها على الفور؟

- لا، طبعاً.. لنركب في السّيارة لتشرح لي في طريقنا إليهم.

- ولكن نغلق الزجّاج المغشّى حتّى لا يرانا أحد؟

وافقته وانطلقنا لنركب بسرعة، وعلى الرّغم من أنّي كنت أحترق لرؤية فرش سيّارتي الجديدة يتّسخ بأسماله إلّا أنّي تجاهلت.. وأغلقنا النّوافذ وانطلقنا وبدأ يشرح ووجهه غارقٌ في الهمّ:

- عندما كلّمتني -في ذلك اليوم بجوار بيتي- عن هولييود ولا أدري ماذا.. أدركت أنّك قد نجحت في اللّحوق بي في اللّيلة السّابقة وأنّي لم أحسّ بك هذه المرّة، ولكنّك أتحت لي فرصة أن أحدّق بملامحك لأعرف من هذا الّذي يلاحقني.. وبدلاً من الذّهاب إلى الإشارة ذهبت لأصدقائي لأسألهم عن شخصك ودلّوني على مكان متجرك، وحين

وصلت رأيته فارغاً والكلّ يتحدّث عن مصيبتك في السّرقة، فذهبت إلى صديقٍ لي ينام النّهار ويسهر اللّيالي جوّالاً في الشّوارع؛ لأسأله عمّا إذا كان رأى شاحنة السّرقة فعلاً، ولكنّ الصّدمة حين وجدتّه يفرغ شاحنته من بضاعةٍ من الأدوات الكهربائيّة، ففككت سلاسلي وبادرت بضربه كي يفقد وعيه، ولكنّه تفاداها والتقط السّلسلة ليهاجمني بها، أنا بواحدةٍ وهو بواحدةٍ، وكدنا نقتل بعضنا، ويبدو أنّ دم أحدنا قد تطاير على ما حولنا، وبعد جهدٍ وأخذ وردٍّ رُزقت برميةً موفّقةً ربطت ساقيه بعد طول عناء، فأمسكته وربطت يديه وأنا ألهث، وأخبرت به أباه الّذي استشاط غضباً عندما علم أنّ ابنه يسرق، وقدت الشّاحنة لأعيد إليك ماء حياتك..

وصمت يبتلع ريقه بقلقٍ وهو يردف : -لا أدري إن كنت صدّقتني، ولكن هذا كلّ ما لديّ..

وهنا كنت قد وصلت إلى البيت فنزلت مسرعاً، بعد أن انتزعت المفتاح من محرّك السّيّارة؛ فأنا لا زلت حذراً من شخصٍ كهذا، ومع ذلك كنت أتوقّع أنّها خدعةٌ في كلّ حركة، وأحضرت النّقود وصعدت، وبدأت أشغّل السّيّارة، فقال متردّداً:

- ألن.. تعطيني إيّاهم؟!

- بل سنذهب سويّةً لندفعهم!

فجمد قبل أن يقول:

- ولكن.. هذا .لا!

- لم لا؟!.. بالسّيّارة أسرع، ألست مستعجلاً؟!

- بلى، ولكنّي.. ولكنّك لا تفهمني .لا أستطيع أن يكون معي أحد..

- وإلى متى ستدعه يفعل ما يحلو له؟.. لقد مضى عليك ستّ سنواتٍ -على حدّ علمي- تتعذّب.. فإلى متى؟

أحنى رأسه وهمس: - أتوقّع أقلّ من الأبد بقليل..

فأمسكت كتفه أهزّه وأقول: - لا، بل سينتهي كلّ هذا اللّيلة!

فصاح: مستحيل!!.. أرجوك، هل ستعطيني المال أم أبحث عن غيرك؟

فقلت: ابحث عن غيري!

فصُدم والتفت لينظر إلى الشّمس، ثمّ قال:

- لن أذهب إلى مكان.. لقد فات الأوان.. كان هذا الوقت كافياً فقط لأعود..

وفتح الباب بخذلانٍ ليخرج مكسوراً، فشددته وقلت:

- إذا أخبرتني بقصّتك الحقيقيّة، فلك أن تأخذ المال وتمضي حتّى لو أخذته لك.. فقد كنت مستعدّاً لأدفع أيّ شيءٍ للمحامي لأشفي فضولي..

فانحنى باكياً إلى رجلي وهو يتوسّل: - أرجوك أعطني إيّاه وأقسم لك بربّك، أنّي سآتي لبيتك، إلى هنا؛ لأخبرك ما دمت أستطيع، ولكن بعد أن ينتهي هذا .لا أملك الوقت، أرجووووك!

فأشفقت عليه وقد شعرت بالذّنب، فأعطيته الحقيبة فانتزعها وانطلق راكضاً دون أن ينبس بحرفٍ، وحتّى هذه اللّحظة لم أدري أأحسنت أم سُرِقْت؟؟؟

وفي اليوم التّالي ما رأيت وجهه، ولكن ما كان يثيرني أنّه لم يكن موجوداً عند الإشارة ولا في مسجده أيضاً، لقد كنت أتساءل: فيما إذا كان قد هرب بالنّقود؟ أم أنّ هذا المبتزّ المزعوم قد آذاه ومنعه من العودة؟.. ولكنّي في الواقع كنت متشائماً وغلب على ظنّي أنّه قد نجح في خداعي في النّهاية، وأنّه فعلاً قد فرّ بالنّقود، وقضيت النّهار في الحسرة والغيظ..

كنّا نتعشّى في مساء ذلك اليوم عندما سمعنا طرقاتٍ عنيفةٍ على الباب فسارعت لأفتحه متوجّساً، وإذا بهما رجلان من الشّرطة، قال أحدهما موجّهاً مسدّسه إليّ:

- أنت مقبوضٌ عليك بتهمة قتل الشابّ بسّام بن عبد العزيز..

فشلّتني الصّدمة ووجدتّني أرفع يديّ مستسلماً أمام مسدّسه وأنا أتأتأ:

- ق..قتل.. بس..بسّام .لا أعرف.. شّابّاً بهذا الاسم!

فأجاب هازئاً: - لكنّك تعرف كيف تقتله فقط.. امشِ!

- دعني أخبر عائلتي على الأقلّ..

- لن تذهب إلى مكان، امشِ.

ولم أجدّ بدّاً من المشي معهما، وخرج ابني الصّغير ذو الثّلاث سنواتٍ وهو يصرخ:

- أبي.. أين تأخذون أبيييي؟؟؟

وخرجنا من البناء على صوت صراخه، وقلبي يتقطّع من أن يراني ابني أعاقب على ذنبٍ لم أفعله أساساً، وركبنا في سيّارة الشّرطة وصولاَ إلى قسم الشّرطة، حيث أخذت مكاني على كرسيّ التّحقيق، والمحقّق ذو العضلات يواجهني وهو يدخّن:

- منذ متى تعرف الشّابّ بسّام بن عبد العزيز؟

لا أعرف شابّاً بهذا الاسم.

امتعض قبل أن يفتح صورةً على جوّاله ويريني جثّة مريعةً للشّابّ ذو السّلاسل الّذي لم أعرف اسمه كلّ تلك الأيّام، متوّرم الوجه، مقطوع اليد، مغطّىً بالدّم من رأسه وحتّى قدميه مع آثار الضّرب الشّديد.. كاد يغمى عليّ من هول المنظر، وقد تدلّى فكّي وصار قلبي يضرب بعنف، وأنا الّذي كنت ألومه لأنّه لم يعد اليوم!!

قاطع حالي صوت المحقّق الأجشّ وهو يقول:

- وجدّت الجثّة صباح اليوم في أحد الأزقّة القريبة من بيتك، وبجواره حقيبةٌ فاخرةٌ مطّرّزٌ عليها اسمك، وقد كَتَب بدمه- آخر ما كَتَب- : قاتلي عادل شعبان..

انتفضت صائحاً: - مستحيييل!!.. القصّة مختلفةٌ تماماً.. هناك من يحاول تلبيسي التّهمة!

أجاب المحقّق بهدوء وهو يزفر دخانه:

- بصماتك على طول الجثّة..

- غير ممكن فأنا لم ألمس سوى يده!

- إذن أنت تعترف أنّك تعرفه، فلماذا كنت تنكر؟

- أعرف وجهه ولا أعرف اسمه.. والآن عندما أريتني صورته عرفته.

- وما وجه علاقتك به؟

- إنّك تعلم أنّه كان يعمل متسوّلاً، وقد كان البارحة -آخر مرّةٍ رأيته- يتوسّل إليّ من أجل المال، وهذا سرّ وجود حقيبتي معه..

- وتريدني أن تقنعني أنّك أعطيته -من قبيل الشّفقة البحتة- مبلغاً يحتاج إلى حقيبةٍ لحمله؟!

- هذا صحيح؛ لأنّه كان يتعرّض للابتزاز من شخصٍ ما، وكان يبكي ويتوسّل إليّ أن أعطيه مالاً، وكان عليه أن يوصل المال قبل غروب الشّمس..

كنت أتكلّم وأنا أمسح عرقي المتدفّق وقلبي يرجف فأجابني وهو يكتب:

- لماذا أشعر أنّك تختلق القصّة أمامي مباشرةً؟

لا .لا.. أنا لا أكذب.. أنا أقول لك الحقيقة البحتة.. هذا كلّ ما أعرفه.. لقد كان أمره محفوفاً بالأسرار، وبالكاد توصّلت إلى هذا الّذي قلته لك!

كان صوتي يتقطّع من الارتباك والخوف، لم أتخيّل في حياتي أن أجلس هذا المجلس، ما لي وللإجرام، أعوذ بالله منّه، ولكنّ هذا لم يكن رأي المحقّق الّذي أودعني في الزّنزانة لينقل تقريره إلى رئيسه، وأدخل في حلقةٍ لا نهاية لها..

جلست على سرير الزّنزانة الحديديّ وتحسّست برودته وأنا أكاد أفقد عقلي، ليس أنا، ليس أنا من يجلس على هذا الشّيء، ماذا جاء بي إلى هنا؟؟

"يااااا الله!!"، هذا ما صحت به ليرنّ صوتي في القبو، ويصرخ المحتجز الّذي في الزّنزانة المجاورة:

- نريد أن ننام هنا!!

وانهرت على الأرض القذرة أرجف، وأتخيّل مصيري بعد هذا اليوم. مع أنّ كلّ ما فعلته هو الإحسان إلى هذا الشّابّ إلّا أنّ جزاءي كان مريعاً ..لا أستطيع أن ألوم -في ذلك- ذاك المسكين الّذي قتل هكذا بعد سنواتٍ من العذاب، ولكن ماذا عنّي؟!.. لماذا يُستَغلّ وجودي في اللّحظة الأخيرة ليُمزّق به حياتي، ويدمّر مستقبلي ويحطّم سمعتي، صرت أتخيّل كيف سيعيش أولادي بخزي أنّ أباهم مجرم، قاتل.. وصرت أتمتم: "بريءء.. بريييء.. صدّقوني، صدّقونيّ!".. كيف سيتكلّم معارفي عنّي بعد اليوم؟!..سأصبح منبوذاً من المجتمع، بل من كلّ المجتمعات؛ الرّاقي منها والدّاني وأنا بريييييءءء!!

تساقطت حبّات الدّموع وأنا أفكّر بالوقت الّذي يكاد يكون لا نهائيّاً في السّجون والعذاب، ربّما عشرين عاماً من عمري. إذا

خرجت حيّاً فسأكون عجوزاً؛ أهرمني السّجن وأكل الشّقاء قوّتي وعزيمتي.. وأين سأذهب؟؟

يا ربيي.. يا ربيي.. شهقت مردّداً، لا شيء في هذا العالم سيظهر براءتي، مهما قلت، مهما فعلت، لا دليل عندي، حاولت أن أحذر من السّرقة وكنت أظن نفسي نبيهاً ومتعقّلاً، ولكن كيف قد تخطر جريمةٌ كهذه على بالي؟؟

تلوّيت من الألم وقد عجزت طرقي وأفلست حيلي ووجدت نفسي أتقدّم الخطوة تلو الأخرى مع كلّ فكرةٍ عاجزةٍ وعَبْرةٍ فاجعةٍ، إلى قول: "يا الله.. يارب.. يا ربي".. عندما قالها لي المحامي، ظننت أنّ هذه القاعدة لم تنطبق عليّ رغم كلّ ما مرّ بي من مشاكلٍ وأحزان، ولكن هذه المرّة اختلفت الأمور بكلّ المعايير، ولم يعد الأمر يتطلّب همّةً أو علماً ليصلحه، بل صار عجزاً واستحالةً وقيوداً تخنقني!

استندت على جدار الزّنزانة أضربه عجزاً منتحباً بصوتٍ منخفض، والأفكار السّوداء تضربني من اليمين وتلطمني من الشّمال، وبعد ليلٍ طويلٍ وفظيع، جرّوني إلى تحقيقٍ آخر، كان هذا الشّرطيّ الجديد مختلفاً في طباعه ولكنّ النّتيجة لم تختلف، ولم تفدني إدلاءاتي وحكاياتي لقصص هذا الشّابّ في شيء، لا يعدو بالنّسبة لهم عن كلامٍ يتلفّقه المتّهم ليدفع الشّر عن نفسه، لا دليل لي، كما أنّه لم يسمعنا أحدٌ

ونحن نتحدّث في السّيّارة أو يرانا وقد أغلقنا الزّجاج المغشّى وبتنا في عزلةٍ.. صعد إلى السّيّارة من مكانٍ ونزل من آخر.. بأيّ أملٍ سأكمل سرد حكايتي؟!

وصار لي يومان وأنا في عذابي، وجاءت زوجتي مكفهرّة الوجه إلى الزّنزانة لتكلّمني من وراء القضبان، حاولت بكلّ قواي أن أثبت لها براءتي وخاصّةً وهي تعرف طباعي عن كثبٍ، فمن المستحيل أن أرتكب جريمةً كهذه، أو حتّى أن أترك ألف دليلٍ على نفسي، وكأنّ السّجن هو حلمي القديم الّذي أسعى إليه بكلّ قواي؟!

لا أعتقد أنّ زوجتي قد صدّقتني تماماً، نظرتها قد ذبحت آخر ما بقي من معنويّاتي، وعلى صوت قدميها تغادران انهرت على الأرض أضرب رأسي بالقضبان وقلبي يحترق، كيف لا والشّفتان السّمراوتان الوحيدتان القادرتان على النّطق ببراءتي قد ماتتا.. وغدا لسانه -مفتاح نجاتي- قطعة لحمٍ باردةٍ تقبع بانتظار الفناء...

أمسكت بقضبان الزّنزانة متوسّلاً وأنا أسخو بدموعي وأهمس: " يا ربّ، لم يعد أحدٌ قادراً عليها سواك" ولكن لماذا قد يساعدني؟.. أنا نفسي لم أساعد بسّاماً الّذي أعهد منه الخداع حتّى تذلّل وانكسر، وما أعطيته المال أخيراً إلّا وأنا

تساورني فيه كلّ ريبة.. فلماذا يساعدني الله اليوم وأنا أنا وهو يعرف من أنا؟؟!

ولكن كبسّام المحتاج العاجز الّذي كان مستعداً ليقدّم أيّ شيءٍ في سبيل الحصول على المال لشدّة حاجته إليه، كنت أيضاً على نفس الحال؛ على المحكّ، إن كنت تسأل، فقد كنت عاجزاً حتّى عن أن آتي بفكرةٍ أعتقد أنّها ستنقذني فأدعو الله كي يحقّقها لي، ربّما كان الشّيء الوحيد الّذي كنت آمله أن يرتكب المجرم الحقيقيّ زلّةً تحطّم خطّته الّتي بدت محكمة، ولكنّه ليس أبلهاً ولو كنت مكانه لكنت ركبت أقرب طائرةٍ مغادراً البلاد من أوّلها..

لذلك وبلا أملٍ، توسّلت إلى الله ووعدتّه بصدقٍ إن هو أخرجني من هذا المستحيل، أن يحصل المستحيل وأصلّي وأصبح شخصاً متديّناً. كنت معتقداً حتّى في تلك اللّحظات أنّ الله بكلّ قوّته ليس يفتقد صلاتي ولا هو بحاجةٍ أن يفعل شيئاً ليحصلّها، ربّما أمري لا يعني له شيئاً، لكنّ أمري يعني لي كلّ شيء!

ومرّت السّاعات العنيدة وأنا أسمع صوت الشّارع بأناسه وضوضاءه، كلّهم حياة، وأنا موتٌ في هذا القبر الشّاحب، الّذي حتّى الألوان قد خاصمته بلا رجعة!

يدي على قلبي ودمعي على خدّي، وأذني تسمع خطوات الشّرطيّ في الممرّ، تقترب وتقترب، وصارت عند بابي، ألم يقولوا أنّ التّحقيق قد ختم؟!.. ربّما يريد أن يعطيني الطّعام، ولكنّ يديه فارغتان.. وفتح القفل وأنا أحدّق به، والتقت أعيننا لوهلةٍ قبل أن يقول:

- أين إكراميّة البشارة؟؟

فانتفضت قائلاً:

- بب..بب.. ببشارة؟؟

- لقد استعاد بسّام وعيه وأخبرنا بأنّ قاتله هو ماهر الأهيب زوج أمّه، وأثبت أنّ روايتك كانت صحيحة!

قفز قلبي من الفرح، وقفزت على قدميّ كما لو عدتّ طفلاً صغيراً لا يعيقه ألم الرّكب، وصحت مغتبطاً:

- لكن!.. ألم تقولوا أنّه قد مات؟؟؟

- بلى، كان بارداً، وكان جثّةً تماماً، حتّى الطّبيب الشّرعيّ وقّع شهادة وفاته، ووضع جسده في البرّاد لأكثر من يوم، ولكن حين أخرجناه البارحة، لدهشتنا وجدنا فجأةً أنّ قلبه ينبض بشكلٍ ضعيفٍ وبطيء، فانتشله الإسعاف مسرعاً إلى العناية المشدّدة وأسعفوه بأكياس الدّم، ومع ذلك كان الأطّباء -بسبب إصاباته الشّديدة- مستبعدين تماماً أن يعود إلى وعيه

وكانوا ينتظرون توقّف القلب في كلّ لحظةٍ، ولكن فجأةً منذ ساعاتٍ فقط، ارتفع معدّل نبضات قلبه، ولتوّي تلقّيت هاتفاً يعلمونني بما أدلى به فور عودته لوعيه!

حاولت أن أقول شيئاً، ولكنّ لساني لم يتحرّك، وشعرت أنّ قلبي خرج من صدري من شدّة قفزاته البهلوانيّة!، وسقطت على ركبتيّ أرجف من الفرح، ولكنّ الشّرطيّ أمسكني قائلاً:

- ليس وقت الصّدمة الآن، إنّ بسّام يطلب رؤيتك وبأسرع وقت، علينا أن نسرع قبل أن يقفد وعيه!

وبالفعل أسرعنا بسيّارة الشّرطة المستعجلة إلى المشفى وأنا أشعر بأنّ للهواء ريحاً ليس كالمعتاد، كما أنّ العالم بدا ملوّناً بشكلٍ صاخب!

ووصلنا إلى المشفى نركض على درجه حتّى وصلنا إلى غرفة العناية المشدّدة، حيث تحقّق الشّرطيّ منّا بسرعةٍ ودخلنا الغرفة مسرعين. كان بسّام يملي وصيّته على أحد رجال الشّرطة ويوزّع أملاكه على كلّ من تذكّر من أصدقاءه الّذين ساندوه طيلة محنته.

فأخذت أتفحّصه بعينيّ وهو ملفّح بالضّمائد وأجهزة الدّم والنّبض ولا أدري ماذا، لا يبدو منه إلّا جزءٌ من وجهه بلونٍ بنفسجيٍّ بعد مكوثه في البرّاد، وأخذت أتأمّل لسانه

المعجزة؛ كانت شفتاه قد ماتتا بالفعل فلا تتحرّكان، ولكنّ لسانه كان يتحرّك ببطءٍ وصعوبةٍ ولكنّه كان يتحرّك.. نعم، يا فرحتي؛ كان يتحرّك.. وامتلأت عيناي بالعبرات؛ وقد حدثت المعجزة لإنقاذي من مصيرٍ أكثر من أسود!!

وانتظرنا لقرابة عشر دقائق قبل أن تنتهي إجراءات الوصيّة، وأستطيع الاقتراب منه أخيراً، وعندما رآني -بما بقي من عينه المتورّمة- وأنا أبكي، قال بكلّ صعوبة:

- سا..محني.. لم أعرف.. أنّ هذا.. سيحدث..

وبادرت بالإجابة :لا لا.. أفهم أنّه ليس ذنبك، لا تتعب نفسك بالكلام بشيءٍ كهذا!

- يجب.. أن أفي.. بوعدي لك قبل.. أن أموت.

لا بأس، إنّي أحلّك منه، يا رجل .لا تحمل همّي.. طبعاً، لن أنتزع منك لحظاتك الأخيرة!

- هذه أكثر.. من أخيرة.. يجب.. أن.. أفي بوعدي .لا تنس.. ما وعدتّ به.. أنت.. لله

فصمتّ مشدوهاً، إنّه يقول..يقول... أنّه عاش بسبب دعائي.. غغير معقول!.. كك.. ككيف عرف بعهدي مع الله؟؟!.. لم أعرف ماذا أقول،فأومأت برأسي، بينما أردف بصعوبةٍ، وهذا ما فهمته

منه وما قرأته من اعتراف ماهر اللّعين وممّا استنتجته، أصوغه على لسانه:

" كان أبي غنيّاً، ولكنّه أصيب بالسّرطان منذ صغري، وطيلة فترة فتوّتي وهو يعاني منه، حتّى توفّي وارتاح أخيراً، وكان آخر ما أوصاني به: 'اعتنِ بأمّك، أنت رَجُلَها'.. وتوفّي تاركاً لنا ثروته أنا وأمّي.. ولكن بعدها تزوّجت أمّي ابن خالتها؛ فهي شابّةٌ ولم يكن لي أن أمنعها.

لم أحبّه من النّظرة الأولى، نظرةٌ حادّة وجسدٌ ضخمٌ، لاعب كمال أجسام، والأسوأ أنّه صار صاحب الكلمة في البيت، كان بإمكاني باختصار أن أستقلّ بنفسي، ولكن لم أحتمل فكرة أن أترك أمّي تحت رحمته تماماً، فجاهدت لأصبر عليه وأتحمّل كلامه وتصرّفاته المزعجة لأجل خاطر أمّي؛ إذ كان من الواضح أنّه يريد طردي من بيتي..

وفي أحد أيّام العطل ارتكبت غلطة حياتي، فبعد أن صبرت على كلامه طيلة اليوم، انفجرت أخيراً قائلاً: ' تقول هذا وأنت تعيش على فضلات أبي؟!"، في تلك اللّحظة احمرّت عيناه، وانقلب إلى وضع الإيذاء العملي بدلاً من اللّفظي..

أمسك أمّي بعنفٍ وما تركها حتّى جعلني أقبّل منه ما أراد، وبدأ بخطّته المتوحّشة المجنونة من حينها، والّتي أظنّه

سعى ليتزوّج أمّي -أساساً- لينفّذها ويسطو -بكلّ ظلمٍ- على أموالنا..

ففجأةً صارت أمّي مريضةً بشدّةً، تصرخ صراخا مفزعاً، وكانت الصّدمة حين صرّح -بكلّ وقاحةٍ- بأنّه أعطاها سمّاً مخفّفاً، لا يقتل ولكنّه يعذّب، ولا يهدأ إلّا بنوعٍ من المخدّر -أو الدّواء- يحتكره عنده، وثمنه...

...ثمنه أن أدفع له كلّ يومٍ خمسين ورقةً فكّةً، أتسوّلها عند الإشارة وأنا أمشي بين النّاس بالسّلاسل موهماً الجميع بأنّي مجنون؛ والهدف من ذلك هو أن يشتهر عنّي أنّي مجنون بشكلٍ ملفتٍ وواسع، فلا يصدّق أحدٌ ما قد أدّعيه من أفعاله وشرّه، وخاصّةً أنّي لا أملك دليلاً دامغاً.. وإيّاي وأن أحاول خداعه؛ لأنّه يراقبني في الشّارع ..

رفضت في البداية بشكلٍ قطعيٍّ؛ فأنا ابن الرّفاهيّة والتّعليم، ولكن سماع صرخات أمّي وزعيقها حرّكني رغماً عن أنفي، فتركت الدّراسة وعكفت على هذا العمل الباطل الشّاقّ..

في الصّباح تسارع أمّي إلى تحضير الطّعام لي بنفسها وتعطيني إيّاه وهي تبكي وتقول:'سامحني' وأقول : 'فداك !'.. وفي المساء، يأخذ منّي الفكّة ويرميها في خزانةٍ خصّصها لذلك ويقول ضاحكاً هازئاً :

'سأملؤها من كرامة دم أبيك!'

ومهما حاولت أن أكيد، كانت أمّي تدفع الثّمن غالياً، وقد كانت مضطرّةً للعيش معه لأنّه الوحيد الّذي يعرف العلاج، وانتظار نجاح التّجارب -إذا ما انفصلت عنه- ليس في صالحها، وكذلك لا أجرؤ على إعلام الشّرطة؛ ليس فقط لأنّ سلامة أمّي مهدّدةٌ دائماً، بل أيضاً لأنّه لا دليل لديّ، فإنّما هي بنظرهم زوجةٌ مريضةٌ وزوجٌ يداويها ويتحمّلها.. وربّما يسافر معها بعيداً عنّي وعن كلّ عقاب..

وهكذا دارت الأيّام؛ مادمت أخدمه وأطيعه فأمّي بخير، وإذا ظهر منّي أيّ شيءٍ لا يعجبه أو أحسّ أنّي أفكّر بالمقاومة؛ فأمّي تقضي ليلها في الصّراخ والعذاب، أو أجلد أنا بدلاً عن ذلك.. وطبعاً أموالنا كلّها صارت ملك يمينه، أمّا أنا فآكل من بقايا طعامه..

أظنّك تفهم ماذا تعني تلك السّتّ أو السّبع سنواتٍ التّي قضيتها، ولماذا جننت -حقّاً- في النّهاية وقرّرت المغامرة بتسجيل المحادثات بواسطة جهازٍ صغيرٍ أعطاني إيّاه صديقي، ولكنّ سوء الحظّ داهمني، أو ربّما هو القدر في انتهاء أعمارنا..

إذ بعد أن بدأت بالتّسجيل سمعت أمّي تقول له: 'هل تحسّنت سمّاعات أذنيك أم لا زالت تعمل بشكلٍ مفرط؟' وهنا أدركت أنّي في خطر، فحاولت أن أنسلّ لأطفئ الجهاز وأؤجّل الخطّة، عندما فتح الباب فجأةً وهو يقول: ' تحسّنت؟! أكاد أسمع دبيب النّمل، أشعر بالدّوار'

أحنيت رأسي وحاولت أن أمرّ مسرعاً حينما ترنّح واستند عليّ ليستعيد توازنه، وهنا أحسّ بالجهاز في ثيابي الرّقيقة أو ربّما رأى شكله عندما شدّت الثّياب، فقبض عليّ بشدّةٍ وانتزعه، وكُشِف أمري بأبسط طريقة..

وبالكاد عرفت ليلتنا كيف تنتهي، ولكنّ الصّبح أبى أن ينتهي إلّا وأنا أسعى بجسدي المتألّم باحثاً عن خمسة آلاف ورقةٍ قبل غروب الشّمس وإلّا....

واستجاب الله دعائي المضطّر، فدفعتك الأقدار إليّ لأراك بعد كلّ تلك السّنين، وبعد أن تركتك ركضت بكلّ قواي لأصل قبل غروب الشّمس، وحين وصلت وأنا بالكاد أستطيع التقاط أنفاسي، دخلت البيت لأجده هادئاً بشكلٍ مريب، ووجدت اللّعين في غرفة الجلوس حيث أجده دائماً، فسلّمته الحقيبة وأنا أبحث عن أمّي دون جدوى، وتركته أفتّش البيت عنها، فوجدتّها على الأريكة جثّةً هامدةً وقد بدا على رأسها ضربةٌ قد حطّمته، بعد أن تشاجرت معه وشتمته ووجّهت إليه اللّوم

لأجلي، فلم يحتمله عقله فغادره، وبقي منه المجنون الّذي وجّه إليها لكمة ملاكم حطّم جمجمتها الكريمة، وبذاك فقد علم أنّ تاجه قد وقع، وأنّ أيّام الابتزاز بسطوتها قد انتهت..

فجنّ جنوني لرؤيتها، وخرجت من الغرفة مسرعاً لأعلم الشّرطة بعد أن حصل المحظور الّذي كنت أجاهد كلّ تلك السّنين خشيته، ولكنّي -عند الباب- رأيت ظلّه في آخر لحظةٍ وأنا أكاد أمرّ، فتفاديت ضربته المباغتة وحاولت أن أدفعه عن نفسي، ولكنّه هذه المرّة كان يريد قتلي، فلم يكن يهاجمني بعصا أو بحزامٍ جلديّ كالعادة؛ بل كان يرتدي قفّازاتٍ ويحمل سكيناً طويلة يريد أن يغرزها في قلبي..

كنت غاضباً لدرجة أنّي استطعت رغم جسدي النّحيل أن أضارعه قليلاً، ولكنّ النّتيجة المحتومة كانت له؛ فقد قبض على يدي في الشّجار واقتطعها بضربتين غاضبتين، لينفجر الألم والدّم من منبعٍ واحد، ولم أعد أشعر بما حولي بعدها إلّا بضربةٍ على رأسي، وآخر ما أذكره أنّي ترنّحت.

(اعترف ماهر اللّعين أنّه بعدها دبّر أمر تلبيسي بالتّهمة بعد أن وجد اسمي في الحقيبة، وهو يعرفني؛ بما أنّي كنت المدير العامّ لشركة ل . م . د المنافسة له، فقام بتغيير مسار خطّته إليّ؛ كعدوٍّ قديمٍ لا مانع من التّنكيل به..

فحاول أن يسرق بصماتي من الحقيبة ليطبعها على الأماكن الخالية -من أثر الدّم- على جسد المسكين، وبما أنّ بصماتي كانت موجودةً على ثياب بسّام بالفعل -عندما أمسكت يده وكتفه في السّيّارة-؛ فقد استطاع جنائيّو الشّرطة استخراج بصمتي كاملةً، وأجزاءها كانت على بقيّة الجسد بفعل اللّعين..

وفي جنح اللّيل، رمى جسد بسّام مع الحقيبة بجواره قريباً من بيتي، وسخّن يده بماء دافئٍ، وتركها تبرد على شكل كتابةٍ أخيرة ولطّخها بالدّم، وانطلق بما استطاع أن يحمل من أموال إلى المطار بعدها)

(أكمل بسّام) والآن استعدت وعيي فجأةً لأجد نفسي على هذه الحال، فأدركت أنّما قاله لي الرّجل الأبيض كان صحيحاً، وأنّ عليّ أن أقوم بمهمّتي الأخيرة .لا إله إلّا الله !! "

- الرّجل الأبيض؟

ردّدتها مستفهماً وقد تأثّرت بقصّته ما لا يوصف، بعد أن بذل جهداً عظيماً ليرويها لي، ولكن بدل أن يجيبني على تعليقي، ثَقُلَ نَفَسُه، وتشنّج رافعاً بصره، وجسده ينتفض، واحد اثنان ثلاثة.. وبعدها كان هناك بسّام.. وكان هناك وعيٌ عند عادل.. وكان عادل جالساً على الكرسيٍّ؛ فصار منهاراً على الأرض!!

عندما فتحت عينيّ ثانيةً كان ذلك على صوت زوجتي وهي توقظني بلطفٍ مبتسمةً؛ تهنّئني على البراءة والسّلامة، وأولادي يصرخون من الفرح: - أفاق بابا.. أفاق بابا !!

تلك اللّحظة العظيمة! أنا حيّ.. أنا حرّ.. أنا زوج.. أنا أب.. أنا إنسانٌ شريف.. شعورٌ لا يوصف، فأخذت أبكي معانقاً عائلتي الواحد تلو الآخر.. وكأنّني استيقظت من كابوسٍ فظيع لأجد الدّنيا بخير!.. يا إلهي لا تمزّق شملنا، يا إلهي لا تعطي زوجتي لغيري، يا إلهي لا تذلّ أولادي بفقدي..!!

المفاجأة كانت حين علمت أنّي أنا الشّخص الّذي أوكل إليه بسّام -في وصيّته- توزيع تركته حسب الوصيّة؛ إذ لا وارث له، والأعجب أنّه كان لي نصيبٌ منها؛ ذاكراً أنّ ذلك تعويضٌ عمّا سبّبه لي !

عليّ القول بأنّه كان شابّاً طيّباً ودمث الأخلاق وبارّاً بأمّه بشكلٍ مذهل !! يكفي بسّام مدحاً أنّه أنقذني يوم سُرِقَت بضاعتي رغم أنّه كان لتوّه قد تعرّف عليّ.. فبم أمدحه الآن وقد خصّص ريع شركته؛ شركة عبد العزيز، الّتي كان قد سيطر عليها ماهر اللّعين- والّتي كنت أذكرها سابقاً بالشركة المنافسة-، خصّص ريعها للأعمال الخيريّة ومساعدة المحتاجين؟! وخمّنوا من عيّنتُ مديراً عامّاً لها.. إنّه أنا طبعاً، وقد قبلت ال(سي في) خاصّتي وأعجبت بها !!!

ولكن فعلاً، يحزّ في القلب أنّ ذلك المتوحّش قد حطّم شباب بسّام بلا رحمةٍ من أجل أنانيّته وحسده التّافه، ولكم هلّلنا وفرحنا حين علمنا أنّهم قبضوا عليه؛ على ماهر الملعون في مطار وجهته يظنّ نفسه حاذقاً ولكن الله جعل نهايته سخيفةً !

كلّما في الأمر أنّ رحلة الطّائرة قد طالت على رجلٍ أَرِقٍ منذ ليلتين؛ فغفلت عينه المجرمة لوهلة وفلت لسانه تحت وطأة لسعات الذّنب، وأخذ يتمتم وهو نائم، وبفضل تبليغ الرّكاب وتسجيل الكاميرات؛ أوقفته الشّرطة هناك إلى حين يتمّ التّحقّق من دولة موطنه من هويّته فيما إذا كان مجرماً فارّاً، وخاصّةً وقد وجدوا حِمْلَه نقوداً وجواهر، وكان هذا بعد وفاة بسّام بساعات، فقامت شرطتنا على الفور بإعلامهم بالجريمة الّتي ارتكبها بحقّ بسّام وأمّه، فأعادوه بالطّائرة إلى هنا حيث مثل في المحكمة، وحكم عليه بالسّجن أربعين سنةً يتضمنّها خمسة عشر سنةً من الأعمال الشّاقة !.. وبالنّسبة لسنّه فهذا بالتّأكيد سجنٌ مدى الحياة، والحمد لله ألف حمد!!

يا إلهي، هل يعلم بسّام بالانتقام الّذي سيقام على زوج أمّه لأجله؟.. ليت روحه تراه وتشفي غليلها بمراقبة عذابه؛ كما

مكث هذا اللّعين السّنين يتسلّى، برؤية بسّام في الشّمس يتقلّى..

فحين دخلت البيت الّذي وقفت في ذاك اليوم مواجهاً جداره الصّنديد؛ دخلته اليوم كوكيلٍ لأجهّزه للبيع، وأوزّع ثمنه على أصحاب الوصيّة، دخلته وبدأت أتخيّل القصص المجنونة الّتي شهدتها هذه الجدران، لكنّه الآن ساكنٌ كصاحبته الّتي وجدناها لا زالت جاثمةً على الأريكة، وعند باب الغرفة كانت بركة دم ابنها تغطّي الأرضيّة بشكلٍ مربعٍ، وتحكي قصّةً بآثار أقدام اللّعين، وهو يقوم بخطّته للإيقاع بي..

ووصلت إلى تلك الخزانة الّتي تختزن فيها عذاب ستّ أو سبع سنين، مملوءةً بمئاتٍ ومئاتٍ من الفكّة مغلّفةً بأسمال بسّام في كلّ مجموعة، والسّلاسل المهترئة متدليّة منها.. يا الله!.. كيف استطاع بسّام أن يتحمّل كلّ هذا الحقد الأسود الّذي صبّ عليه بلا سببٍ ولا رحمة؟؟!

طبعاً، قمت بتوزيع تلك النّقود الّتي بلغت قيمتها أربعة آلاف ورقة وخمسمئة على المحتاجين بشكلٍ خاصٍّ، على نيّة أصحابهم الّذين سبق وأشفقوا على بسّام بها؛ معتقدين أنّه محتاج، ولكن الآن وصلت إلى الأيدي الصّحيحة، غفر الله لك وعذرك يا بسّام !!

في الختام، أقول أنّي بقيت أترحّم على صاحبي المسكين في كلّ صلاة، وأنا أذرف دموع الشّكر لله الرّحيم؛ كلّما تذكّرت معجزته الّتي أعجزت الطّبّ والأطبّاء وجعلت قلباً محتضراً ينبض في برّاد !!!!!!!

... تمّت بفضل الله العظيم...

ملاحظة: اعتمدت فكرة عودة نبض بسّام المعجزة على قصّتين واقعيّتين عاد فيهما قلب الميّت إلى النّبض بعد البرّاد، وبعد ضياع دمه بسبب الضّرب على رأسه! بل وعاش الضّحيّة حتّى لحظة كتابة هذه السّطور، فسبحان من هو على كلّ شيءٍ قدير!